

قداسة الله

المحاضرة ٣: القداسة والعذل

أر. سي. سنبزول

إنَّ نَظَرَنَا إِلَى الْقَرْنِ ١٨ فِي أَمْرِيكَ سَنَلْحِظُ فِكْرَةً تَكَرَّرَتْ أَثْنَاءَ الصَّحْوَةِ الْكُبْرَى لِلْكَرِازَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ هُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ التَّرْكِيزِ الثَّنَائِيِّ. كَانَتْ رِسَالَةُ الْوَعَاظِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فَاسِدٌ جِدًّا، وَأَنَّ اللَّهَ غَاظِبٌ جِدًّا. أَيُّ كَانَ هُنَاكَ تَرْكِيزٌ شَدِيدٌ عَلَى خَطِيئَةِ الْإِنْسَانِ وَعَلَى غَضَبِ اللَّهِ حَتَّى أَنْ مَا يُسَمِّيهِ الْبَعْضُ "لَاهُوتِ الرَّعْبِ" كَانَ السَّائِدَ آنَ ذَاكَ.

ثُمَّ فِي الْقَرْنِ ١٩ نَجِدُ رَدَّ فِعْلٍ عَنِيفٍ ضِدَّ تِلْكَ اللَّهْجَةِ الْكَرِازِيَّةِ، فَصَارَتِ الرِّسَالَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ فَاسِدًا لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ غَاظِبًا لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، وَصَارَ التَّرْكِيزُ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَصَلَاحِ الْإِنْسَانِ.

ثُمَّ فِي بَدَايَةِ الْقَرْنِ ٢٠ وَقَعَ رَدُّ فِعْلٍ تُجَاهَهُ رَدُّ الْفِعْلِ السَّابِقِ فِي الْبِلَادِ فِي عَالَمِ الْلَاهُوتِ بِظُهُورِ لَاهُوتِ يُسَمَّى "لَاهُوتِ الْأَزْمَةِ"، وَقَدْ سُمِّيَ هَكَذَا لِأَنَّهُ يَسْتَعِيرُ الْمُصْطَلَحَ مِنَ الْكَلِمَةِ الْيُونَانِيَّةِ "كْرِيْسِس"، الَّتِي تُعْنِي دَيْئُونَةَ. وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْلَاهُوتِيُونَ إِنَّنَا إِنَّا أَرْدْنَا أَخَذَ الصُّورَةَ الْكِتَابِيَّةَ عَنِ اللَّهِ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ، عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ مَا يَقُولُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَنِ غَضَبِ اللَّهِ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ ثَانِيَةً.

"الجانب المظلم" في شخصية الله؟

قَالَ بَعْضُ الْمُتَطَرِّفِينَ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَةِ إِنَّ مَا نَرَاهُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، خَاصَّةً فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فِي أَرْزَمَةٍ وَمَوَاضِعَ مَعْيِنَةٍ، يُعْبِرُ عَنْ شَيْءٍ غَيْرِ مَنْطِقِيٍّ فِي شَخْصِيَّةِ اللَّهِ نَفْسِهِ. أَيُّ، قَالُوا إِنَّنَا نَرَى جَلِيًّا اسْتِعْلَانًا لِعَضَبِ اللَّهِ فِي صَفَحَاتِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ لَا لَبَسَ فِيهِ، لَكِنَّ هَذَا الْعَضَبُ لَيْسَ اسْتِعْلَانًا لِيَرَّ اللَّهُ أَوْ قَدَاسَتِهِ بِقَدْرِ كَوْنِهِ يُظْهِرُ وُجُودَ خَلِّ مَا فِي شَخْصِيَّةِ اللَّهِ.

صَدَّقُوا أَوْ لَا، فَقَدْ قَرَأْتُ لِبَعْضِ الْلَاهُوتِيِّينَ الَّذِينَ تَحَدَّثُوا عَنِ الْجَانِبِ الْمُظْلَمِ فِي شَخْصِيَّةِ يَهُوه، قَائِلِينَ إِنَّ بِدَاخِلِ اللَّهِ يَكْمُنُ عُنْصُرٌ شَيْطَانِيٌّ، وَهَذَا الْعُنْصُرُ يَظْهَرُ وَيُعْلَنُ عَنِ نَفْسِهِ، فِي اسْتِعْلَانَاتٍ فُجَائِيَّةٍ، وَغَيْرِ مُبَرَّرَةٍ، لِعَضَبِ نَزْوِيِّ، وَمُنْقَلَبٍ، وَتَعْسُفِيٍّ. بَعْضُ النُّصُوصِ الْمُؤَيَّدَةِ لِهَذَا قِصَّةٌ نَقَرُهَا فِي الْلَاوِيِّينَ، سَأَفْرَأُهَا عَلَيْكُمْ سَرِيعًا.

هلاك ناداب وأبيهو:

في بداية لاويين، نقرأ: "وأخذ ابنا هارون: ناداب وأبيهو كلُّ منهما مجمرته وجعلها ناراً ووضعها عليها بخوراً وقرَّباً أمام الربِّ ناراً غريبةً لم يأمرهما بها فخرجت نارٌ من عند الربِّ وأكلتهما فماتا أمام الربِّ" (لاويين ١٠: ٢-١).

في هذا الوصف المُفْتَضِبِ لموتِ ابني هارون، يبدو أننا نرى نموذجاً من هذا الاستعلان السريع والنزوي لعصبِ الله. حين أقرأ هذا، أحاول أن أقرأ ما بين السطور، وأسأل نفسي، "كيف كان ردُّ فعلِ هارون تجاه كلِّ هذا؟" تخيلوا معي!

تذكروا قبل هذا في الكتاب المقدس كيف كان الاحتفال المطول الذي أمر به الله حين قدس هارون رئيساً لكهنة إسرائيل، وكيف رتب الله أدقَّ تفاصيلِ تصميم الثياب التي كان لا بُدَّ أن يرتديها رئيس الكهنة، التي كانت للمجد والبهاء. ثم نستطيع تخيل شعور هارون وهو يرى ابنيه يُقدَّسان للكهنوت.

وها قد فعل الكاهنان الشابان شيئاً، ولسنا نعلم بالتحديد ما هو، لكن بطريقة ما جاء إلى المذبح، وفعل ما قد يفعله عادة رجال دين حدين العهد مجريين ومُبتدعين مع بعضٍ من مزاح الشباب، وهم يعبتون ويمرحون في العمل، في عدم نُصوح. ودون سابق إنذار، أو توبيخ، فيما كانا يُقدِّمان هذه النار الغريبة على المذبح، فجأة! ضربهما الله فماتا في الحال.

هل يمكنكم أن تشعروا بما شعر به هارون؟ فقد ذهب إلى موسى، وقال له: "ماذا يحدث هنا؟ أيُّ إله هذا الذي نخدمه؟ لقد كرسْتُ كلَّ حياتي لخدمة يهوه وماذا كان المقابل؟ في لمح البصر أخذ ابني لأجل خطأ بسيط، أيُّ إله هذا؟"

اسمعوا الآن ما قاله موسى: "فقال موسى لهارون: هذا ما تكلم به الربُّ قائلاً: في القريبين مني أتقدس وأمام جميع الشعب أتمجد" (لاويين ١٠: ٣). ثم نستكمل: "فصمت هارون".

نعم، كان لا بُدَّ أن يصمت. إذ جاء إليه القدير قائلاً: "أعلم يا هارون أن أملك بسبب قلبي ابنيك شديداً، لكن هل تتذكر يوم أسست الكهنوت؟ أتذكر يوم أفرزتك وقدمت لك لذلك العمل المقدس؟ حين قلت إنه توجد بعض المبادئ لن أتهاون فيها في كهنتي، إنني سأقدس في أيِّ إنسان يتجرأ أن يخدم باسمي. وأمام جميع الشعب سأعامل بتوقير وإكرام، وحين تكلم الله، صمت هارون."

ضرب عزة فمات:

لَكِنْ تُوَجَدُ مَوَاقِفُ أُخْرَى مِثْلُ هَذَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مِنْ أَكْثَرِ الْقِصَصِ الْمُرْعَبَةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ هِيَ قِصَّةُ عُرَّةَ الْقَهَاتِي، تَعْرِفُونَ جَمِيعًا قِصَّةَ عُرَّةَ. إِنَّهَا قِصَّةُ نَقْلِ تَابُوتِ الْعَهْدِ. الَّذِي تَعْرِفُونَ أَنَّهُ كَانَ عَرْشَ اللَّهِ وَكَانَ أَقْدَسَ مُحْتَوِيَاتِ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ، وَقَدْ سَقَطَ فِي أَيْدِي الْفِلِسْطِينِيِّينَ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُدْهَلَةِ أُعِيدَ إِلَى الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ وَأُحْفِظَ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آمِنٍ حَتَّى جَاءَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ لِيَعُودَ تَابُوتُ الْعَهْدِ إِلَى مَوْضِعِهِ فِي الْخِيْمَةِ. وَرَتَّبَ دَاوُدُ احْتِفَالًا وَأَمَرَ بِإِدْخَالِ تَابُوتِ الْعَهْدِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاصْطَفَى النَّاسَ فِي الشُّوَارِعِ، وَرَقَّصُوا وَغَنُّوا وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَوْكِبَ عَرْشِ اللَّهِ أَمَامَهُمْ.

وَنَقْرَأُ أَنَّ تَابُوتَ الْعَهْدِ نُقِلَ عَلَى عَجَلَةٍ نِيرَانٍ، وَيُخْبِرُنَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَتِ الْعَجَلَةُ تَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ وَبَنُو قَهَاتٍ يَسِيرُونَ بِجَوَارِحِهَا لِحِمَايَتِهَا، وَاسْمُ أَحَدِهِمْ عُرَّةَ. فِي وَسْطِ الْمَوْكِبِ تَعَثَّرَ أَحَدُ النِّيرَانِ فَجَاءَتْ، وَابْتَدَأَتْ الْعَجَلَةُ تَتَأَرْجَحُ وَتَمِيلُ، وَبَدَأَ أَنَّ هَذَا التَّابُوتَ الْإِسْرَائِيلِيَّ الْمُقَدَّسَ عَلَى وَشِكِ الْإِنْزِلَاقِ عَنِ الْعَجَلَةِ وَالسُّقُوطِ فِي الْوَحْلِ فَتَنَّتْهُكُ قُدْسِيَّتُهُ، وَهَكَذَا، فِي حَرَكَةِ غَرِيْبَةٍ لَا إِرَادِيَّةٍ مَدَّ عُرَّةَ يَدَهُ لِيَسْنِدَ التَّابُوتَ، لِيَضْمَنَ أَلَّا يَسْقُطَ عَرْشُ اللَّهِ فِي الْوَحْلِ.

لَكِنْ مَاذَا حَدَّثَتْ؟ هَلِ انْفَتَحَتِ السَّمَاوَاتُ، وَجَاءَ صَوْتُ قَائِلًا: "شُكْرًا يَا عُرَّةَ؟" لَا، بَلْ مَا أَنْ لَمَسَ عُرَّةَ تَابُوتَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَ، ضَرَبَهُ اللَّهُ فَمَاتَ.

أَتَذَكَّرُ أَنَّي قَرَأْتُ يَوْمًا مَا مِنْهَا جَا لِمَدَارِسِ الْأَخْدَى الطَّوَائِفِ الَّتِي كُنْتُ أَعْمَلُ مَعَهَا مُرْسَلًا مِنَ الْمَقَرِّ الرَّئِيسِيِّ، فَقَرَأْتُ نُصُوصًا مِمَّا كَانَتْ مَكْتُوبَةً: "نُذْرِكُ أَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي نَقْرَأُهَا فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، مِثْلَ قِصَّةِ عُرَّةَ وَنَادَابَ، وَإِهْلَاكِ اللَّهِ لِلْعَالَمِ بِالطُّوفَانِ، رِجَالًا، وَنِسَاءً، وَأَطْفَالًا، وَأَمْرَهُ بِالتَّحْرِيمِ حِينَ أَمَرَ الْيَهُودَ بِدُخُولِ أَرْضِ كَنْعَانَ وَدَبَّحَ جَمِيعَ سُكَّانِهَا رِجَالًا، وَنِسَاءً، وَأَطْفَالًا، لَا يُمَكِّنُ أَنَّ يَكُونَ اسْتِعْلَانًا لِشَخْصِيَّةِ اللَّهِ الْحَقِيقِيَّةِ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ هِيَ مُجَرَّدُ قِصَصٍ عَنِ شَعْبِ يَهُودِيٍّ قَدِيمٍ، وَبِدَائِيٍّ، وَشِبْهِ بَدَوِيٍّ، عَاشَ قَبْلَ ظُهُورِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ، فَسَرُّوا الْأَحْدَاثَ الَّتِي رَأَوْهَا فِي صَوْءِ لَاهُوتِهِمُ الْخَاصِّ. مَا حَدَّثَ عَلَى الْأَرْجَحِ هُوَ أَنَّ عُرَّةَ أُصِيبَ بِأَرْزَمَةٍ قَلْبِيَّةٍ، وَمَاتَ، فَنَسَبَ الْكَاتِبُ الْيَهُودِيُّ وَفَاتَهُ إِلَى تَعْبِيرِ قَاسٍ مِنَ اللَّهِ عَنِ غَضَبِهِ الْفَاسِدِ.

أَيُّ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْوَارِدِ لِمَوْلَيْي هَذَا الْمِنْهَاجِ أَنَّ لِلَّهِ نَفْسَهُ آيَةٌ صِلَةٌ بِمَوْتِ عُرَّةَ. وَلَكِنْ إِنْ نَظَرْنَا بِتَمَعْنٍ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَدَرَسْنَا تَارِيخَ بَنِي قَهَاتِ، أَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ سَتَنْصَحُ أَمَامَنَا.

أَكْثَرُ تَلَوْنًا مِنَ الثَّرَابِ:

فَفِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ أُعْطِيَ أَسْبَاطُ إِسْرَائِيلَ الْإِثْنَا عَشَرَ مَهَامًا وَأَنْصَبَةً مُعَيَّنَةً فِي الْأَرْضِ، بَيْنَمَا أَمَرَ اللَّهُ سِبْطَ لَآوِي لِيَكُونَ السَّبْطُ الْمَسْئُولَ عَنِ الْكَهَنوتِ وَعَنْ شُؤُنِ الْهَيْكَلِ وَالتَّعْلِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَكَانَ لَآوِي هُوَ السَّبْطُ، وَبِدَاخِلِهِ عَشَائِرُ رَئِيسِيَّةٌ وَأُوكَلَتْ لِكُلِّ عَشِيرَةٍ مُهَمَّةٌ مُحَدَّدَةٌ. كَانَ قَهَاتٌ وَاحِدًا مِنْ أَبْنَاءِ لَآوِي، وَكَانَتْ عَشِيرَةُ قَهَاتٍ مُفْرَزَةً مِنَ اللَّهِ لِمُهَمَّةٍ مُحَدَّدَةٍ (عدد ٤: ١-٢٠). كَانَتْ وَطِيقَتُهُمْ، وَالغَرَضُ مِنْ وَجُودِهِمْ، وَشُغْلُهُمْ الشَّاغِلُ هُوَ الْإِعْتِنَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمُقَدَّسَةِ، وَكَانُوا يَتَدَرَّبُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْذُ الطُّفُولَةِ جَمِيعَ التَّعْلِيمَاتِ وَالتَّفَاصِيلِ الدَّقِيقَةِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ بِشَأْنِ كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الْمُقَدَّسَاتِ وَالْأَوَانِي الْمُقَدَّسَةِ. وَكَانَ الْمَبْدَأُ الْقَاطِعُ، الَّذِي لَا يُمَكِّنُ النَّهَائُونَ فِيهِ وَالَّذِي انْطَبَعَ فِي ذَهْنِ كُلِّ قَهَاتِيٍّ مِنْذُ طُفُولَتِهِ هُوَ: إِيَّاكَ الْبَيْتَةُ أَنْ تَلْمَسَ عَرْشَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ: "إِنْ لَمَسْتَهُ تَمُوتُ" (عدد ٤: ١٥).

أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ، نَتَسَاءَلُ لِمَاذَا نُقِلَ التَّابُوتُ عَلَى عَجَلَةٍ ثِيرَانٍ؟ فَقَدْ كَانَ يُنْبَغِي نَقْلُهُ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ. كَانَتْ هُنَاكَ حَلَقَاتٌ عِنْدَ طَرَفِي التَّابُوتِ تُدْخَلُ بِهَا عَصِيٌّ لِحَمْلِهِ لِئَلَّا تَلْمَسَ يَدٌ بَشَرِيَّةٌ هَذَا الْعَرْشَ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَوَضَعُوهُ عَلَى عَجَلَةٍ ثِيرَانٍ. وَفِيمَا كَانُوا سَائِرِينَ، فَعَلَّ عَزَّةٌ هَذَا الشَّيْءَ غَيْرَ الْمَسْمُوحِ بِهِ. فَقَدْ لَمَسَ عَرْشَ اللَّهِ.

لَكِنْ رَبَّمَا تَقُولُ: "انْتَظِرْ لِحِطَّةٍ. لِمَاذَا فَعَلَ هَذَا؟ كَانَتْ دَوَافِعُهُ نَقِيَّةً، وَكَانَ يُحَاوِلُ حِمَايَةَ عَرْشِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَتَدَنَسَ بِالْوَحْلِ". لَكِنْ تِلْكَ أَيُّهَا السَّادَةُ كَانَتْ حَظِيَّةً عَزَّةً الْمُتَعَجَّرِفَةَ: لَقَدْ افْتَرَضَ أَنْ يَدِيهِ أَطْهَرَ مِنَ الثَّرَابِ. لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ مَا يُدْنِسُ عَرْشَ اللَّهِ. بَلْ كَانَتْ مَوْجُودَةً لِتَعْمَلَ مَا دَعَاها اللَّهُ إِلَيْهِ أَيُّ أَنْ تَكُونَ ثَرَابًا، وَتَتَحَوَّلَ إِلَى غُبَارٍ حِينَ تَجِفُّ وَإِلَى طِينٍ حِينَ تُمَرَّجُ بِالْمَاءِ. فَهِيَ تُطِيعُ قَوَانِينَ اللَّهِ يَوْمًا فَيَوْمٍ، وَلَا تَفْعَلُ سِوَى مَا يُفْتَرَضُ عَلَى الثَّرَابِ فِعْلُهُ. لَا يُوَجَدُ فِي الثَّرَابِ مَا يُنَجِّسُ. لَكِنْ عَنْ يَدِ الْإِنْسَانِ قَالَ اللَّهُ: "لَا أُرِيدُ أَنْ تَمَسَّ هَذَا الْعَرْشَ". بِاخْتِصَارٍ، انْتَهَكَ عَزَّةٌ نَامُوسَ اللَّهِ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ.

كثيرون نظير مازيسون:

وَلَكِنْ تَبْدُو عَقُوبَةً قَاسِيَةً وَاسْتِنْتَانِيَّةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِنْ قَرَأْتُمْ، مَثَلًا، فِي أَسْفَارِ مُوسَى الْخَمْسَةِ سَتَجِدُونَ قَائِمَةً بِالْجَرَائِمِ الَّتِي عَقُوبَتُهَا الْمَوْتُ فِي إِسْرَائِيلَ، فَهُنَاكَ مَا يَزِيدُ عَنْ ٣٠ تَعَدَّى وَضَعَ لَهُ اللَّهُ عَقُوبَةَ الْمَوْتِ عَلَى الْيَهُودِ -لَيْسَ فَقَطْ عَنْ جَرَائِمِ الْقَتْلِ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى -بَلْ أَيْضًا عَنِ الشَّدُوذِ الْجِنْسِيِّ، وَالزَّانَا. إِنْ كَانَ ابْنٌ مَتَمَرِّدًا فِي الْعَلَنِ وَقَاسِيًا مَعَ أَبِيهِ، يُحَكَّمُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ. وَكَانَ ذَهَابُ يَهُودِيٍّ إِلَى عَرَّافَةٍ جَرِيمَةً عَقُوبَتُهَا الْمَوْتُ. قَضَى اللَّهُ بِعَقُوبَةِ الْمَوْتِ عَنْ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ تَعَدَّى، وَمَرَّةً أُخْرَى، يُنْظَرُ الْإِلَهَوْتِيُّونَ إِلَى هَذَا، وَيَقُولُونَ: "يَا لِلْبِدَائِيَّةِ وَالتَّعَطُّشِ لِلدِّمَاءِ وَالْقَسْوَةِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ كَلِمَةُ اللَّهِ خَاصَّةً فِي ضَوْءِ رُوحِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، رُوحِ الرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ".

من ضمن الأحداث المذهلة والمهمشة في تاريخ الكنيسة هي الحادثة التاريخية التي حفرت الجمع الرسمي للكتاب المقدس لتكوين القائمة القانونية للأسفار المقدسة، تذكروا أن هذا الكتاب مكون من عدة أسفار منفصلة، سبعة وعشرون سفرًا في العهد الجديد. مكونة من الرسائل والأنجيل التي كتبت في وقت مبكر ثم تداولتها الكنيسة وأقرت بكونها كلمة الله، بل لعبت أيضًا هذا الدور، لكن لم يتكبد أحد عناء جمعها في مجلد واحد قائلًا: هذا هو الكتاب المقدس، حتى جاء رجل اسمه مارسيون وأصدر الطبعة الرسمية الأولى للكتاب المقدس، أي القائمة الأولى من الأسفار القانونية.

كانت القائمة في شدة الغرابة، كان العهد القديم غير موجود، وهكذا غالبية أحداث الأنجيل، ووضعت فيه القليل من الملاحظات من بولس الرسول لأن المبدأ الذي عمل به مارسيون هو: آية إشارة إلى إله العهد القديم، يهوه، لا يمكن أن تكون كلمة الله، لأن يسوع في العهد الجديد يظهر إلهًا مختلفًا عن ذاك الإله سريع الغضب وحاد الطباع والعدواني الذي أزعج على جبل سيناء في العهد القديم.

ألم تسألوا أنفسكم يومًا عن هذا؟ أنا أسمع هذا اليوم طوال الوقت. يوجد اليوم كثير من نظير مارسيون من حولنا يقولون: "يُعجبني العهد الجديد، لكن إله العهد القديم هذا يفوق احتمالي." حين نعارض العهد القديم بالعهد الجديد يبدو العهد القديم قاسيًا.

خيانة كونيّة:

تلقيت مساعدة لحل هذه المشكلة من كتابات لاهوتي بارز كان مثيرًا جدًا للجدل في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ويدعى هانز كون. وفي إحدى أقدم وأهم كتاباته باللغة الألمانية بعنوان "ريختفريجون" وترجمته "التبرير". يناقش الدكتور كون قضية ما يبدو وكأنه فسوة غضب الله في الكتاب المقدس، ولا سيما في العهد القديم، طارحًا فكرة أن الأزمة واللغز الحقيقيين لا يكمنان في تطبيق إله فُدوس وبَارٍ للعدل، فأين اللغز في معاقبة خالق فُدوس لمخلوقات تتمرد عليه مُنعمدة؟ بل اللغز الحقيقي يكمن في تحمّل الله جيلًا بعد جيل لمخلوقات مُتمردة تُعترفُ فعل الخيانة ضد سلطانهِ. هل فكرتم في الأمر من قبل بهذه الطريقة؟

ثم أضاف كون: "تذكر أنه حتى مع وجود ما يزيد عن ٣٠ تعدد عُوبته الموت في العهد القديم، لا يُمثل هذا صورة قاسية واستثنائية من تطبيق الله للعدل. بل يُمثل اختزالًا ضخمًا في عدد الجرائم التي عُوبتها الموت." وأضاف: "تذكروا القوانين التي وضعت عند الخلق، حين نفع الله، ملك السماء والأرض، القادر على كل شيء، في التراب نسمة حياة وجبل مخلوقًا على صورته وأعطاه أسْمَى مكانة على هذا الكوكب وأعظم بركة وهبة لم

يَكُنْ يَدِينُ لَهُ بِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ هَيْبَةُ الْحَيَاةِ، وَطَبَعَ صُورَتَهُ الْمُقَدَّسَةَ عَلَى تِلْكَ الْكُومَةِ مِنَ التُّرَابِ فَأَعْطَاهُ الْحَيَاةَ. ثُمَّ قَالَ: "النَّفْسُ الَّتِي تُحْطِي هِيَ تَمُوتُ".

وهكذا، مُنْذُ الْخَلْقِ، اُعْتَبِرْتَ كُلَّ الْخَطَايَا تَعْدِيَاتٍ عُقُوبَتُهَا الْمَوْتُ وَلَنْ تَأْتِيَ عُقُوبَةُ الْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ تَبْلُغَ عُمُرَ السَّبْعِينَ بَلْ مَاذَا كَانَتْ الْقَاعِدَةُ عِنْدَ الْخَلْقِ؟ "يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ" (تكوين ٢: ١٧). أَعْلَمُ أَنَّ الْبَعْضَ يَقُولُونَ إِنَّ النَّصَّ يَقُولُ إِنَّهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّعْدِي سُنْقَاسِي مَوْتًا رُوحِيًّا. لَمْ يَكُنْ هَذَا مَا قَالَهُ اللَّهُ. رَبَّمَا يَكُونُ صَحِيحًا أَنَّ الْإِنْسَانَ قَاسَى الْمَوْتَ الرُّوحِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي انْتَهَكَ فِيهِ قَانُونَ اللَّهِ لَكِنَّ الْقَاعِدَةَ عِنْدَ الْخَلْقِ كَانَتْ "يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا تَمُوتُ عَضُوبًا، وَيَنْتَهِي أَمْرُكَ".

مَنْ إِذَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدِينَ خَالِقًا كَامِلًا الْقَدَاسَةَ، وَالْبِرَّ، يَخْلُقُ بِرَحْمَةٍ مُطْلَقَةٍ مَخْلُوقًا وَيَهَبُهُ كُلَّ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ. هَلْ هُنَاكَ مُشْكِلَةٌ إِذَنْ أَنْ يُبَيِّدَ ذَلِكَ الْإِلَهُ مَخْلُوقًا تَجَرًّا أَنْ يَتَّحَدَى سُلْطَانَهُ عَلَى هَذِهِ الْخَلِيقَةِ؟

هَلْ تَوَقَّفْتُمْ يَوْمًا لِلتَّفَكِيرِ فِي مَا تُمَثِّلُهُ أَقْلٌ خَطِيئَةٌ؟ فَإِنِّي بِأَقْلٍ خَطِيئَةٍ، أَقُولُ إِنَّ إِرَادَتِي أَعْلَى مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ.

يُزْعِمُنِي أَنَّهُ فِي مُجْتَمَعِنَا يَفْعَلُ النَّاسُ أَشْيَاءَ مِثْلَ الْإِجْهَاضِ قَائِلِينَ إِنَّ هَذَا حَقُّهُمُ الْأَدْبِي. أَعْرِفُ تَمَامًا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا الْحَقَّ الْأَدْبِيَّ فِي فِعْلِ شَيْءٍ كَهَذَا وَأَفْشَعِرُ حِينَ أَفَكِّرُ فِي مَا سَيَحْدُثُ حِينَ يَقِفُ هَؤُلَاءِ أَمَامَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ: "كَانَ مِنْ حَقِّي أَنْ أَفْعَلَ هَذَا" مِنْ أَيْنَ حَصَلَتْ عَلَى هَذَا الْحَقِّ؟ لَكِنْ حَتَّى فِي أَصْعَرَ الْخَطَايَا - وَلَيْسَ خَطِيئَةً شَنِيعَةً كَالْإِجْهَاضِ - (أَيُّ تِلْكَ الَّتِي نُسَمِّيهَا هَفَوَاتٍ)، نَحْنُ نَتَّحَدَى سُلْطَانَ اللَّهِ وَعَدْلَهُ وَنُهَيِّنُ جَلَالَهُ. لَكِنَّا اعْتَدْنَا فِعْلًا هَذَا وَنَحْرُصُ عَلَى تَبْرِيرِ عَضِيَانِنَا حَتَّى تَحْجَرَتْ قُلُوبُنَا، وَصَارَتْ ضَمَائِرُنَا مَوْسُومَةً، وَلَمْ نَعُدْ نَنْظُرْ أَنَّ عَضِيَانَ مَلِكِ الْكُونِ أَمْرٌ خَطِيرٌ. أَسْمِي هَذَا خِيَانَةً كُؤُوبِيَّةً.

طُولُ أَنَاةٍ بِنِعْمَةٍ:

لَكِنْ كَمَا أَشَارَ كُونٌ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ فِي لَحْظَةٍ ثَوْرَتِهِمْ وَتَمَرُدِهِمْ عَلَى سُلْطَانِهِ، مَدَّ لَهُمْ يَدَ الرَّحْمَةِ. بَدَلًا مِنَ الْعَدْلِ، سَكَبَ نِعْمَتَهُ، يَحْفَلُ تَارِيخُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ بِحَوَادِثَ مُتَكَرِّرَةٍ عَنِ اسْتِعْلَانِ اللَّهِ لِطُولِ أَنَاةِهِ وَغُفْرَانِهِ فِي نِعْمَةٍ وَرَحْمَةٍ نَجَاهَ أَنْاسٍ كَانُوا يَعْصُونَ طُولَ الْوَقْتِ.

وَيَقُولُ كُونٌ: "أَعْتَرِفُ أَنَّنِي لَا أَعْلَمُ مَشُورَةَ اللَّهِ السِّرِّيَّةَ. وَلَا يُمَكِّنُنِي قِرَاءَةُ أَفْكَارِ اللَّهِ، لَكِنِّي أَسْأَلُ إِنْ كَانَ مَا نَجِدُهُ كَثِيرًا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مِنْ تَطْبِيقِ سَرِيعٍ وَفَجَائِيٍّ لِلْعَدْلِ. هُوَ أَنْ اللَّهَ رَبَّمَا وَجَدَ ضَرُورَةً لِيَقْطَعَ نَمَطَهُ الطَّبِيعِيَّ مِنْ طُولِ الْأَنَاةِ، وَالتَّمَهُّلِ، وَالنِّعْمَةِ، وَالرَّحْمَةِ، كَيْ يُذَكِّرَنَا بِعَدْلِهِ".

فَقَدْ شَكَا هُوَ نَفْسُهُ مِنْ أَنَّ الْعَرَضَ مِنْ إِمْهَالِهِ هُوَ أَنْ يُتَاحَ لَنَا وَقْتُ لِلتَّوْبَةِ؛ لَكِنَّا بَدَلًا مِنْ أَنْ نَتُوبَ نَسْتَعْلِ هَذَا الإِمْهَالَ، وَنَنْظُرُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْتَرِثُ حِينَ نُخْطِئُ، وَحَتَّى إِنْ كَانَ يَكْتَرِثُ، فَلَيْسَ بِيَدِهِ شَيْءٌ.

رَأَيْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ رَجُلًا يَتَحَدَّى اللَّهَ وَيَصْرُخُ نَحْوَ السَّمَاءِ قَائِلًا: "إِنْ كُنْتَ مَوْجُودًا هُنَاكَ، أَقْتُلْنِي الْآنَ" مُتَحَدِّيًا الْقَدِيرَ، لَمْ أَرِدْ أَنْ أَنْظُرَ هَذَا لَكِنِّي فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ رَأَيْتُ جُبَّتَهُ، وَلَنْ أَنْسى هَذَا أَبَدًا. لَكِنَّا أَيُّهَا السَّادَةُ، قَدْ اعْتَدْنَا عَلَى أَنْمَاطِ اللَّهِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالرَّحْمَةِ حَتَّى أَنَّا لَا نَكْتَفِي بِاعْتِبَارِهَا أَمْرًا مُسَلِّمًا بِهِ، بَلْ نَبْدَأُ فِي اعْتِبَارِهَا حَقًّا، وَنُطَالِبُ بِهَا، ثُمَّ حِينَ لَا نَحْصُلُ عَلَيْهَا يَثُورُ غَضَبُنَا.

"هَلْ يُرِيدُ آخَرُونَ الْعَذْلَ؟"

تَحَدَّثْتُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ فِي كَلِيَّةِ دالاس اللاهوتية. مِنْ نَصِّ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ يَتَنَاوَلُ الرَّبُّ يَسُوعُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ عِنْدَهَا، وَاسْتَخْدَمْتُ الْمِثَالَ الْمُفْضَلَ لَدَيَّ، فَحِينَ كُنْتُ مُعَلِّمًا حَدِيثًا بِالْجَامِعَةِ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَقْدِمَ مَادَّةَ مُقَدِّمَةِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ إِلَى ٢٥٠ مِنَ الطُّلَّابِ الْجُدِّدِ.

وَفِي الْيَوْمِ الدِّرَاسِيِّ الْأَوَّلِ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أُحَدِّدَ التَّكْلِيفَاتِ، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ أَكُونَ فِي شِدَّةِ الْحَرْصِ بِشَأْنِ الْمُتَطَلِّبَاتِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا سَيَحْرَفُونَهَا بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ لِتَهْرَبَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: "أَنْتُمْ مُطَالِبُونَ بِتَقْدِيمِ ٤ أَوْرَاقٍ بَحْثِيَّةٍ، كُلٌّ مِنْهَا مَكُونٌ مِنْ ٣-٥ أَوْ ٢-٤، وَإِنْ لَمْ تَسَلِّمُوها فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ سَتَرْسَبُونَ مَا لَمْ تَكُنْ لَدَيْكُمْ حَالَةً طَارِئَةً كَدُخُولِ الْمَشْفَى أَوْ حَالَةٍ وَفَاةٍ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى وَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ أَقُولَ هَذَا. ثُمَّ سَأَلْتُ: "هَلْ فَهَمَ الْجَمِيعُ؟" وَوَأَفَقُوا. كَانَ مَوْعِدُ تَسْلِيمِ الْبَحْثِ الْأَوَّلِ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ سَبْتَمْبَرِ.

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ اسْتَلَمْتُ أَوْرَاقًا بَحْثِيَّةً مِنْ ٢٢٥ طَالِبٍ مُجْتَهِدٍ، بَيْنَمَا وَقَفَ ٢٥ طَالِبًا مُرْتَجِفِينَ وَمُرْتَعِدِينَ خَوْفًا، قَائِلِينَ: "دَكْتُورُ سَبْرُولِ، لَمْ نَنْتَهَ مِنْ وَرَقَةِ الْبَحْثِ لَمْ نَحْسِبِ الْوَقْتِ جَيِّدًا، لَمْ نَتَأَقَلَمْ بَعْدُ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْمَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ إِلَى الْجَامِعَةِ. نَرْجُوكَ، لَا تُعْطِنَا دَرَجَةَ رَاسِبٍ أَمْهَلْنَا يَوْمَيْنِ إِضَافِيَيْنِ". فَقُلْتُ: "حَسَنًا، سَأَسْمَحُ بِهَذَا هَذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ، لَكِنْ لَنْ أَسْمَحَ بِهَذَا ثَانِيَةً، وَتَذَكَّرُوا أَنَّي فِي الشَّهْرِ الْقَادِمِ أُرِيدُ تِلْكَ الْأَوْرَاقَ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ".

ثُمَّ فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ شَهْرِ أَكْتُوبَرِ. اسْتَلَمْتُ أَوْرَاقَ بَحْثٍ مِنْ ٢٠٠ طَالِبٍ وَلَمْ يُسَلِّمَهَا ٥٠ طَالِبًا. وَحِينَ سَأَلْتُ: "أَيْنَ أَوْرَاقُكُمْ الْبَحْثِيَّةُ؟" أَجَابُونِي: "يَا أَسْتَاذُ، كَانَتْ مَوَاعِيدُ تَسْلِيمِ أَوْرَاقِ جَمِيعِ الْمَوَادِّ فِي هَذَا الْأُسْبُوعِ، وَكَانَ لَدِينَا الْإِحْتِقَالُ السَّنَوِيُّ وَأَنْشَعَلْنَا بِالْعُرُوضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَرْجُوكَ أَعْطِنَا فُرْصَةً أُخْرَى" فَقُلْتُ: "حَسَنًا سَأَعْطِيكُمْ يَوْمَيْنِ إِضَافِيَيْنِ" هَلْ تَدْرُونَ مَا حَدَثَ؟ بَدَأُوا فِي الْغِنَاءِ بِشَكْلِ عَقَوِي "نُحِبُّكَ أَسْتَاذُ سَبْرُولِ حَقًّا نُحِبُّكَ". وَصَرْتُ الْأَسْتَاذَ الْأَكْثَرَ شَعْبِيَّةً فِي الْجَامِعَةِ إِلَى أَنْ جَاءَ يَوْمَ الثَّلَاثِينَ مِنْ نُوْفَمْبَرِ.

فِي هَذَا الْيَوْمِ سَلَّمَ ١٥٠ فَقَطُّ مِنَ الطَّلَبَةِ أَوْ رَاقَهُمْ. وَتَقَدَّمَ إِلَيَّ ١٠٠ آخَرُونَ فِي اسْتِرْخَاءٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، فَقُلْتُ: "جُونْسُون!" قَالَ: "نَعَمْ سَيِّدِي" قُلْتُ: "أَيْنَ وَرَقَةُ الْبَحْثِ الشَّهْرِيَّةِ؟" فَقَالَ: "يَا أَسْتَاذِي الْعَزِيزَ، لَا تَقْلَقْ، سَأَقْدِمُهَا خِلَالَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ" هُنَا أَخْرَجْتُ دَفْتَرَ الدَّرَجَاتِ وَقُلْتُ: "جُونْسُون، أَنْتَ رَاسِبٌ". "إِيوَالْتِ، أَيْنَ وَرَقَتُكَ؟" لَمْ أَحْضِرْهَا يَا سَيِّدِي "رَاسِبٌ"، "كَانِينْجَهَام! رَاسِبٌ".

وَعِنْدِيذٍ هَتَفَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْفِ - حَمِنُوا مَاذَا قَالَ - "هَذَا لَيْسَ عَدْلًا!" "بَاتْرِيكَ، هَلْ قُلْتَ هَذَا لَيْسَ عَدْلًا؟" قَالَ: "نَعَمْ". فَقُلْتُ: "هَلْ صَحِيحٌ أَنَّكَ لَمْ تُسَلِّمْ وَرَقَةَ بَحْثِكَ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ الْمَرَّةَ السَّابِقَةَ؟" قَالَ: "نَعَمْ" فَقُلْتُ: "حَسَنًا، إِنْ أَرَدْتَ الْعَدْلَ سَتَحْضُلُ عَلَيْهِ" وَوَضَعْتُ دَرَجَةَ رَاسِبٍ عَنِ كِلَا الشَّهْرَيْنِ. ثُمَّ سَأَلْتُ: "هَلْ يُرِيدُ آخَرُونَ الْعَدْلَ؟"

أَيُّهَا السَّادَةُ، نَحْتَاجُ إِدْرَاكَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ. فَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ يَدِينُ لَكَ بِالرَّحْمَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَنْطَلِقَ جَرَسُ إِذْذَارٍ فِي عَقْلِكَ لِيُنْذِرَكَ أَنَّكَ لَا تَقْصِدُ الرَّحْمَةَ، إِذْ أَنَّ الرَّحْمَةَ بِحَسَبِ تَعْرِيفِهَا هِيَ شَيْءٌ تَطَوُّعِيٌّ. لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مُلْزَمًا قَطُّ أَنْ يَرْحَمَ مَخْلُوقًا مُتَمَرِّدًا. فَهُوَ لَا يَدِينُ لَكَ بِالرَّحْمَةِ. فَقَدْ قَالَ: "إِنِّي أَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ" (رومية ٩: ١٥).

اللَّهُ لَيْسَ ظَالِمًا قَطُّ:

وَسَأَخْتِمُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ: إِنَّ الْإِلَهَ الْفُدُوسَ عَادِلٌ وَرَحِيمٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ، لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا قَطُّ. لَمْ يَحْدُثْ قَطُّ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنْ عَاقَبَ اللَّهُ شَخْصًا بَرِيئًا. لَا يَعْرِفُ اللَّهُ بِبَسَاطَةٍ كَيْفَ يَكُونُ ظَالِمًا. إِنِّي أَشْكُرُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ بِالْفِعْلِ كَيْفَ لَا يُطَبِّقُ عَدْلَهُ، لِأَنَّ الرَّحْمَةَ هِيَ عَدَمُ تَطْبِيقِ الْعَدْلِ لِكِنَّهَا لَيْسَتْ ظُلْمًا.

سَأَتْرِكُكُمْ إِذْنًا مَعَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: حِينَ تَصَلُونَ لَا تَطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ أَنْ يُجْرِيَ عَدْلَهُ. فَرَبِّمَا يَسْتَجِيبُ، وَإِنْ تَعَامَلْ مَعَنَا اللَّهُ بِحَسَبِ عَدْلِهِ، فَإِنَّا سَنَهْلِكُ فِي لَحْظَةٍ مِثْلَ نَادَابِ وَأَبِيهِو وَعَزَّةٍ وَحَنَانِيَا وَسَفِيرَةَ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ؛ لَكِنَّا نَحْيَا، أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، بِنِعْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَدَعُونَا لَا نَنْسَى هَذَا قَطُّ.

لِنُصَلِّ.

أَبَانَا، اغْفِرْ لَنَا لِأَنَّنا نَتَّبَجِّحُ عَلَى لُطْفِكَ، لِأَنَّنا نَطَالِبُ بِهِ، وَنَغْضَبُ حِينَ لَا نَحْضُلُ عَلَيْهِ. سَاعِدْنَا يَا أَبَانَا أَنْ نُنْبَهَرَ بِنِعْمَتِكَ، نَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ فِي اسْمِ الْمَسِيحِ، آمِينَ.

الدكتور أ.ز. سي. سبرول هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيْر، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقَدِيْسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِيْنَةِ سَانْفُورْد بِوَلَايَةِ فُلُورِيْدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيْسٍ لِكُلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ أَلْفَ أَكْثَرَ مِنْ مَائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُلُّنَا لَاهُوتِيُّونَ" (Everyone's)
(A Theologian).

تَمَّ نَشْرُ هَذِهِ الْمُحَاضَرَةِ فِي الْأَصْلِ فِي مَوْقِعِ [ليجونير](https://ar.ligonier.org).